ذكرى

سيرة

كان غسّان كنفاني مثقفاً عضوياً حسب التحديد الغرامشي. روائي وقاص وصحافي ومسرحي وتشكيلي، ومناضل سخّر حياته لقضيته. ولد في عكا في فلسطين عام 1936. وإثر نكبة 1948 غادر إلى جنوب لبنان فدمشق حيث حاز الإعدادية والتحق بسلك التعليم في وكالة الغوث. هاجر إلى الكويت حيث عمل مدرّساً للرياضة والفنون الجميلة وكتب أولى قصصه القصيرة «القميص المسروق» التي نال عليها جائزة محلية في وقت ظهرت عليه بوادر مرض السكري. في عام 1960 انتقل إلى بيروت ليعمل في مجلة «الحرية». تزوّج عام 1961 ورزق بفايز وليلى.
ترجمت أعماله إلى 17 لغة، وأبرزها في الرواية: «رجال في الشمس» (1963)، «ما تبقى لكم» (1966)، «أم سعد» (1969)، «عائد إلى حيفا» (1970).
وفي القصّة والمسرح: «موت سرير رقم 12» (1961)، «أرض البرتقال الحزين» (1963)، «عن الرجال والبنادق» (1968)، «عالم ليس لنا» (1970) «القبّعة والنبي» (1973). وترك العديد من المقالات السياسية والنقدية «الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال» (1968)، «في الأدب الصهيوني» (1967)... أغتاله الموساد في 8 تموز (يوليو) 1972 بتفجير سيارته في منطقة الحازمية.

مسيرة غسان كنفاني في الصحافة، تكاد توازي حضوره الإبداعي وتفوقه غزارة. لفت الأنظار في الكويت بتعليق كان يوقّعه «أبو العز»، وكان نشر مقالاته الأولى في «الرأي» في دمشق. كتب في الأدب والنقد، لكن مقالاته السياسية هي التي أثارت الاهتمام الأكبر. وفي 1960، في بيروت بدأ مسؤولاً للقسم الثقافي في مجلة «الحرية» القريبة من «حركة القوميين العرب». ترأس تحرير جريدة «المحرر»، وأشرف على الملحق الأسبوعي الذي كانت تصدره باسم «فلسطين». ترأس تحرير «الأنوار» بعد النكسة، وحتى عام 1969 تاريخ اشتراكه في تأسيس مجلة «الهدف» لسان حال «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، وكان صاحبها ورئيس تحريرها حتى اغتياله.

35 عاماً على استشهاد صاحب «رجال في الشمس»

غسان كنفاني

لماذا لم ندق (حتى الآن) جدران الخزان؟

غادر عكا طفلاً مع النكبة، وعاش بين دمشق والكويت وبيروت حيث استشهد قبل اندلاع الحرب الأهليّة. خلال عمره المقتضب، حارب على جبهات كثيرة، وترك إنتاجاً غزيراً، وأسس للرواية الفلسطينية الحديثة. من هو حقاً هذا الأديب والفنان والصحافي والمناضل الفلسطيني الشهير الذي قتلته إسرائيل في وضح النهار، قبل... 35 عاماً؟

بيار أبي صعب

صيف بيروت لم يتغيّر منذ ذلك الوقت. حرارة تموز نفسها. وفي مواجهة التلّة الصغيرة في الحازميّة، يمتد البحر كسولاً كعادته. كانت بيروت مسرح روايات الـ SAS البوليسية، ودرّة الشرق، عاصمة الحداثة والبيكيني والميني جوب والجيرك وعمر خورشيد و«ملاهي» الزيتونة، وجواسيس السان جورج. مختبر الأفكار، وموئل الخوارج. «نعيم» الازدهار الاقتصادي، وبؤرة الغليان السياسي ومعارك الحريّة.
غسان كنفاني جاءها أول الستينات. الصحافي اللامع الذي شغل الناس بتعليقات «أبو العزّ»، وانتهر ذات يوم عبد الكريم قاسم، أول أيام ثورة الـ 58 في العراق... أقنعه جورج حبش بالانتقال إلى بيروت، فاعتمر الكوفيّة والعقال، ودخل أرض «العسل والبخور» بجواز سفر عماني يحمل اسم هاشم فايز. هنا شهد تكريس مشروعه الأدبي، وانخرط في العمل الصحافي والسياسي... حصل على الجنسيّة اللبنانية، وأسس عائلته مع آني الصبية الدنماركيّة التي قصدت ذات يوم بيروت للتعرف عن كثب إلى القضيّة الفلسطينية، فتزوّجت من تلك القضية. بيروت أواخر الستينات حالة خاصة. كان في الوقت متسع للحلم والحب، والتجريب والنضال. من تلك السنوات بقي لنا الرسائل النارية التي تبادلها غسان كنفاني مع غادة السمّان، حورية الأوساط الثقافية آنذاك. رئيس القسم الثقافي في مجلّة «الحريّة»، صار رئيس تحرير جريدة «المحرر». ذات يوم من العام 1967، قرأ مسرحيّة «العصفور الأحدب»، فهلل احتفالاً بالنص: «كلمات الماغوط مسلّحة بالمخالب (...) قادرة على تحقيق إيقاع عذب ومفاجئ». وفي «عين الحلوة» اكتشف فناناً فذاً ينشر رسومه على جدران المخيّم. فدعاه إلى العمل معه. وصار الشاب الموهوب ناجي العلي، أحد أشهر فناني الكاريكاتور العرب في النصف الثاني من القرن العشرين.
صيف بيروت صباح الثامن من يوليو 1972، يشبه صيفها هذا الصباح. لكن كل شيء تغيّر. الثورات والحروب والهزائم مرت من هنا، والموت نفسه ما زال يحوم في الجوار. صعد كنفاني إلى سيارته، قربه جلست لميس ابنة أخته فايزة رفيقة السنوات الصعبة. أدار المحرّك، فانفجرت السيارة بهما. عدنان الأخ الأكبر سجّل في كتابه «غسان كنفاني: صفحات كانت مطوية»: «إنها الابتسامة نفسها التي تعوّد أن يرسمها في مناسبات مهمة ومفصلية، رأيتها واضحة على أطراف شفتيه وعينيه المسدلتين على صورة حلم ساخر». لقد قتل «الموساد» غسان كنفاني. دولة تقتل كاتباً. اليوم يبدو السيناريو عادياً للأسف. بعد أيام من الجريمة وجهت آني كنفاني رسالة مفتوحة إلى رئيس الوزراء صائب سلام: «هاملت ابن بلادي، كان يردد: ثمة رائحة عطنة في مملكة الدنمارك. أما أنا فأخشى أن تكون الرائحة العطنة انتقلت إلى هنا...».
هجّر كنفاني طفلاً يوم من مدينته عكا الخائفة «من هدير البحر». عايش النكبة وما تلاها. ولم يبق له سوى أن يشهد. كل أدبه من مسرح وقصّة ورواية، ومقالات ودراسات، وكل فنّه أيضاً، حلقات في مشروع واحد: محاولة لسرد الكارثة، ودعوة إلى التمرّد. اليوم، قد تبدو الكلمات باهتة، مستهلكة، لشد ما عبث بها الزمن. لكنها لم تكن كذلك يوم كتب غسان كنفاني، «رجال في الشمس» (1963) التي «طبعت بطابعها الأدب الفلسطيني ما قبل الرصاصة الأولى»، بتعبير الشاعر أحمد دحبور. ثلاثة فلسطينين عند شط العرب، يحاولون التسلل إلى الكويت. عجوز وشاب وطفل، سيموتون في خزان الصهريج الفارغ... سيقتلهم القيظ عند نقطة المرور. فيرمي أبو خيزران جثثهم بعد أن ينظفها من الفلوس. ويتساءل: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟»! «دق جدران الخزان» صار مصطلحاً شائعاً. إنه دعوة إلى الصراخ، وإلى قلب الأمور. بعدها كتب كنفاني «ما تبقّى لكم» (1966) التي تبشّر بـ«العمل الفدائي»!
في كل كتاباته وإبداعاته، من مجموعة «أرض البرتقال الحزين» (1963) إلى رواية «أم سعد» (1969)، وظف كنفاني تجربته المعيشة، مشاهدات ذلك الولد «المتأمل الهادئ»، كما وصفه أبوه المحامي الذي كان من ثوار الساعة الأولى. تلميذ الفرير في يافا ذاق التشرد والأيام الصعبة. باع أكياس الورق في أسواق الشام، عمل «عرضحالجياً» يحرر الاستدعاءات على آلة كاتبة مستأجرة عند أبواب المحكمة في دمشق... صحّح البروفات في أقبية المطابع... قبل أن يعلّم الرسم في مدارس اللاجئين في دمشق ملتحقاً بجامعتها لدراسة الأدب العربي.
في 6 آذار (مارس) 1955 كتب والده في مذكراته: «تأكدت اليوم أن غسان منتسب إلى حركة القوميين العرب، ويعمل في جريدة «الرأي» الناطقة باسمهم». كان من رموز «الجبهة الشعبية»، وفي الوقت نفسه صمم العديد من ملصقاتها التي يعتبرها الدارسون محطة أساسية في التاريخ «الغرافيكي» العربي. هل ننسى أن كنفاني فنان تشكيلي أيضاً؟ لقد ترك مجموعة زيتيات تعود إلى مرحلته الكويتية (1956ـ 1960)، قبل أن ينصرف نهائياً إلى الكتابة والصحافة والسياسة... ولعل كنفاني أول من عرّف الجمهور العربي الواسع بشعراء مثل محمود درويش توفيق زياد وسميح القاسم، في دراسته «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة».
«عائد إلى حيفا» (1970) آخر الروايات التي صدرت في حياته، تعود إلى تلك اللحظة الحاسمة في وعي جيله. يروي كنفاني قصة لاجئ الذي يعود إلى حيفا برفقة زوجته، بعد سقوط الضفة والقطاع، بحثاً عن ابنهما الرضيع الذي تركته أمّه لحظة الهروب في الـ 48... لكن الولد كبر في «بلاد أخرى»، وصار جندياً اسرائيلياً! يلتقي نص كنفاني بالإسرائيلي، كما يلاحظ الناقد فيصل درّاج، يعطيه شكلاً وملامح لغة. يحرره من الأسطورة والصورة الغيبية. لكن الكتاب يخفي أيضاً حنيناً سرياً إلى غسان الطفل الذي بقي هناك في بيت جدّه، قرب المستشفى الوطني في عكّا.
رحل الشاهد النموذجي، والحلم في أوجه. مات ذات يوم صيفيّ في بيروت، في عزّ الفورة الثقافية والأدبية والسياسية للمدينة. كان «رائداً» حتى في طريقة اغتياله. بعد استشهاد غسان كنفاني صار بوسع الحرب اللبنانية أن تبدأ، فاتحة مذابح جديدة... نذيرة النكبات والانهيارات اللاحقة.

الأيقونة أم الأسير العاشق؟

خليل صويلح

ستظل صرخة أبي الخيزران في خاتمة رواية «رجال في الشمس» «لماذا لم تدقوا الخزّان» مجازاً عنيفاً، اختزل فيه غسان كنفاني التراجيديا الفلسطينية. فالصهريج الذي كان يعبر الصحراء لم يكن إلا مقبرة الفلسطيني وخاتمته المأساوية. وسيعيد توفيق صالح في فيلمه «المخدوعون» المأخوذ عن الرواية عينها، المشهد نفسه بألق بصري أخّاذ. ولتكتمل المأساة بأصولها الشكسبيرية، ستحضر أيضاً صورة حرس الحدود الكويتي وهم يعابثون أبا الخيزران قبل أن يختموا أوراقه لعبور الحدود، مطالبين إياه بأن يروي لهم حكايته مع الراقصة كوكب، فيما كانت جثث الفلسطينيين تختنق داخل الخزّان المغلق. لا دليل للفلسطيني في رمال الحدود يوصله إلى ملاذ آمن. هذا ما أشار إليه كنفاني باكراً ليذهب إلى شؤون أخرى، ويتحوّل إلى خبر أول في إذاعة «بي بي سي».
اليوم، نفتّش عن صورة غسان كنفاني الأخرى. صورة الفتى الذي لجأ إلى دمشق وعمل كاتب عرائض أمام باب قصر العدل ثم صورة معلّم الرسم في مدرسة وكالة الغوث والمهاجر إلى الكويت في ترحال غجري ليعود إلى دمشق مثقلاً بمرض السكري وأبر الأنسولين. وهناك صورته في «ملهى الكروان» الدمشقي، واكتشافه حياة الليل في عبثية مطلقة تليق بـ«فوكنر الفلسطيني».
هل كان ضرورياً أن يكون كنفاني أيقونة فلسطينية؟ وإلا ما تفسير تكرار صورة المناضل؟ لنقل إنها واحدة من مراياه المتعدّدة والمتشظية. لكن لماذا نحجب صورة الكائن الهش والعاشق والحكواتي؟ هكذا سأحاول أن أنبش وهج رسائله إلى غادة السمان، لا بوصفها فضيحة معلنة، كما أرادها حملة السيوف، بل من باب أنّ هذه الرسائل نصوص عشق متوحّشة. فالمناضل الجيد عاشق جيد بالضرورة. كنفاني كما تكشف عنه سطوره في الرسائل يكتب نصاً متوهّجاً من دون أقنعة. ولعله في مثل هذه الاعترافات تكمن خصوصية كنفاني، فهي إضافة أصيلة إلى نصه الآخر، النص الثوري والمقاوم. لماذا إذاً يحتجّ الآخرون حين تضيق العبارة إلى حدود الألم والشهوة وشهقات الانتظار «يكبر غيابك في صدري بصورة تستعصي على العلاج. ويخفق قلبي كلّما دقّ جرس الهاتف في هذه الغرفة العالية». الرسائل نصوص نادرة كم نحتاج إليها في مكتبة فقيرة، بعيداً من نصاعة الزيف الأدبي الذي تغرق به رفوف المكتبة العربية والفلسطينية، بعدما ضاقت بالصراخ والديناميت الفاسد. هكذا سينتبه، في زمن آخر، شاعر مثل محمود درويش إلى أمثولة غسان كنفاني في أهمية النص الشخصي، فيكتب «جدارية» و«سرير الغريبة» و«كزهر اللوز أو أبعد». لقد آن الأوان ليكتب الفلسطيني نصّه المؤجل أو كما يقول محمود درويش نفسه «ليس الفلسطيني مهنة أو شعاراً، إنه كائن بشري يحب الحياة وينخطف بزهر اللوز». لنستعيد إذاً صورة غسان كنفاني المنخطف بزهر اللوز لا الأيقونة وحسب!

«عائد إلى حيفا» على المسرح الإسرائيلي؟

حيفا ــ فراس الخطيب

كان فلسطينيو الداخل أوّل من عرض أعمالاً مسرحيّة لكنفاني. في عام 1977، أعدَّ رياض مصاروة الذي يُعتبر من أول مُمسرحي روايات كنفاني، عرض «رجال في الشمس» على خشبة مسرح «الصداقة» في الناصرة. إلا أنّ الرقابة منعت المسرحية بعد العرض الثالث. وعلى رغم مرور 30 عاماً على هذه الحادثة، لا يزال مصاروة يتساءل ما إذا كانت الرقابة الإسرائيلية «خافت حينها من وعي متجدّد يتميز بالنقد الذاتي»، مشيراً إلى أنّ «كنفاني تحلّى بالجرأة أكثر من غيره في تلك الحقبة التاريخيّة الحرجة. وما زلنا نحتاج إلى هذه الجرأة بالذات في هذا الزمن الفلسطيني الرديء».
شكّلت «رجال في الشمس» قفزةً جديدةً في المسرح الفلسطيني السياسي الملتزم، ما فرض وجود غسان كنفاني وروايته في الوسط اليهودي، عندما أخرج فؤاد عوض المسرحية نفسها كتمرين في «جامعة تل أبيب» عام 1980. كما أخرجها منير بكري في كلية «سمينار هكيبوتسيم» ثم في «جامعة حيفا» عام 2001.
استمر المسرح الفلسطيني في اكتشاف عالم غسّان كنفاني. وفي الناصرة، أعدّ رياض مصاروة الرواية غير المكتملة «الأعمى والأطرش» وفيها انتقد غسان كنفاني الفلسطيني الذي يتعلّق بالوهم والغيبيات. واللافت أنّ الرواية نفسها أُعدّت وأخرجت في الوقت عينه في الناصرة ورام الله عام 1986. وفي بداية التسعينيات، أخرج سامح حجازي مسرحية «الشيء» على خشبة «المسرح الوطني الفلسطيني» في القدس، كما أخرج كامل الباشا «القنديل الصغير» في المسرح نفسه. وفي أواخر التسعينيات، أعدَّ عادل أبو ريا، مدير مسرح الجوال في مدينة سخنين في الداخل مسرحية «عائد إلى حيفا» وأخرجها أديب جهشان. يقول أبو ريا: «فلسطينيو 48 يحبّون غسان كنفاني، يشعرون بأنه قريب. وقضية «عائد إلى حيفا» هي قضية عن الجميع أثيرت بلغة المسرح»، مشدداً على أنّ المسرح «سيعيد قريباً «عائد إلى حيفا»».
واليوم، تسري أحاديث بأنّ مسرح «الكاميري» الذي يعدّ أحد أكبر المسارح الإسرائيلية ينوي إنتاج «عائد إلى حيفا» بتوقيع الإسرائيلي سيناي بيتير. وأشار مصاروة إلى أنّ كنفاني «استوعب التحولات التاريخية، وأن سلوك شخصياته لا يمكن أن يُفهم إلا ضمن هذه التحولات، فهي لا تدور في فراغ تاريخي، بل هي جزء من تاريخ أو بالأحرى هي التاريخ نفسه».